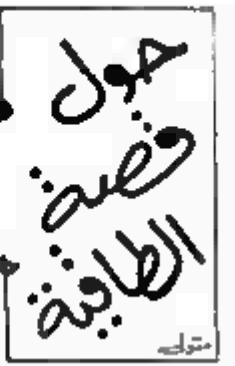

حول قصة الطاقية

متولي

• تعقيب: يوسف جاد الحق

• تعليق: محمود تيمور

تلقيت من الأديب السوري « يوسف جاد الحق » رسالة يعقب فيها على قصص نشرت بالمجلة ، وقد خصني بأكثر نقده قصة لي نشرت في عدد نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، وهي قصة « الطاقية » ، فرأيت من حقه على ان انشر نقده ، ومن واجبي نحوه ان اعلق على هذا النقد ، وان يكن في ايجاز يقتضيه المقام .

كتب الأديب يقول :

« هذه القصة من النوع الهادف الملتزم فهى محاولة لقصة اشتراكية تظهر مدى التطور الذي أصاب الحياة العامة في ريف العربية المتحدة بعد الثورة ، والمحاولة ناجحة في فكرتها ، جميلة في عرضها – كما هو العهد بقصص الاستاذ « تيمور » دائما – غير ان الحوار لم يكن ناجحا في كثير من المواضع . ذلك ان التناقض – او لنقل المفاجأة – كانت تتجلى في تلك الاسئلة التى يطرحها بطل القصة القاهرى على من كان يصادفهم من اهل القرية بعد وصوله اليها بعد غيبته الطويلة عنها نيفا وثلاثين عاما . فهو عند وصوله محطة القرية « السلامية » ، وقد جاءها لتجديد العهد مع اسرة « الحاج ابو صالح » صديق والده القديم ، وليرى « ستوتة » ابنته التى كان قد رافقها شهرا او اكثر حينذاك ، وقد كانا في العاشرة من عمرهما او نحوها – يفاجأ اول ما يفاجأ بتغير الملامح والسمات للمنطقة كلها ، وللمحطة السكة الحديد التى نزل بها ، حتى ليوشك ان ينكرها . ولكنه لا يلبث أن يدرك أنه لم يخطئ طريقه ، وذلك عندما يقرأ اللوحة المعلقة على الجدار ، ويرى السيارات العامة والخاصة غادية رائحة من القرية واليها . فقد أصبحت هذه هى الوسيلة الحديثة للمواصلات بين المحطة والقرية . وهنا نجد أنفسنا أمام المفارقة الأولى حين نرى بطل القصة – على الرغم من وضوح معالم التغير هذه – يبدى من ضروب الدهشة في تساؤلاته وتصرفاته جميعا ما يجعلنا نحس الافتعال والتكلف واضحين . فهو يصر اولا على الا يذهب الى القرية الا على ظهر حمار – وسيلة المواصلات

القديمة التي اتخذها يوم جاء اليها مع والده فيما مضى — ويعثر على الحمار اخيرا ، ولكن كيف ؟ لنقرا معا كلام الاستاذ « تيمور » :

« ومر بي فلاح مرهو على ظهر دابته ، فأشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

اريد الوصول الى قرية «السلامية». كم تطلب من اجر على المشوار ؟

فرمقني بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

انا لا أؤجر حماري للركوب يا أفندم ..

وهم ان يتابع سيره ، فامسكت به اقول :

سأعطيك اجرة سخية ترضى بها

ولم اتوان في اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

هاتها ...

فرمق الرجل القطعة في يدي لحظات، ثم مد يده قائلا :

هاتها .. » .

الاستاذ تيمور من اول القصة الى آخرها يقول لنا ان كل شيء قد تغير معالم القرية ووسائل العيش فيها ، مستواها الثقافي والاجتماعي .. كل شيء .. والسؤال الآن هو هل يتغير كل شيء في القرية الا الانسان نفسه ؟ كيف يعقل ان يشمل التغير كل مظاهر الحياة هناك ، ثم تند عن هذا المواطن تصرفات كهذه لن يدفعه اليها الا حاجة ملحة ، او فقدان الكرامة . وهذا مما لا يتفق مع السنة الجديدة ، ولا ينسجم مع مرحلة التطور التي تمت ، خاصة بعد ان رسم لنا الكاتب سمات من شخصية الرجل المزهوة التي ترمق الناس بطرف العين لفرط خيلائها . وبعد ان رفض بلسانه تأجير حماره ، واذا به يعدل عن رايه ويبدل موقفه كله بمجرد أن يرى القطعة الفضية . ان التغيرات التي حدثت تفرض بالضرورة أن يصبح امثال هذا المواطن في حال من السعة وعلى قدر من الكرامة يتنافيان مع امكان ان يسيل لعابه لمرأى القطعة الفضية .

واذا انتقلنا الى موضع آخر من القصة ، ومضينا مع بطلها وهو يدخل القرية ويرى الأنوار الكهربائية والشوارع الحديثة ، ويعمد الى البحث عن الذين جاء من اجلهم ، فتى يرتدي حلة شبيهة بحلة الكشافة عن اسرة الحاج « ابو صالح » فينبئه هذا انه لن يجد احدا تلك الليلة في داره ، لان القرية تحتفل بالذكرى السنوية الاولى لتأسيسها ، واهلها اما بين النظارة يتفرجون او بين جوقة الممثلين يتأهبون للتمثيل ، وانه لا سبيل الى البحث عنهم بين المتفرجين لكثرتهم . فلنحاول ان نجد ضالته بين جماعة الممثلين والغريب انا نجد صاحبنا يمضي فعلا ومن غير تردد وراء الفتى للبحث بين الممثلين . فهل كان يتوقع حقا ان يجد الحاج « ابو صالح » الرجل الذي لابد قد اصبح عجوزا (ان كان ما يزال حيا) بين هؤلاء ؟ ام كان يامل ان يجد بينهم « ستوته » التي

باتت تناهز الاربعين ؟ كيف ينقل مثل هذا الافتراض وبهذه البساطة ، اللهم الا اذا كان يريد أن يدفع القارىء الى خشبة المسرح وخلف الكواليس ليفجعه بمفارقة أخرى أكثر طرافة وأدعى للدهشة . وذلك حين يأخذ في التفرس في وجوه الممثلين والممثلات ، ثم يهتف بواحدة منهم « ستوتة » ... « ستوتة » .. ويتبين لنا أن هذه التي هتفت بها صاحبنا هي « فيفي » ابنة « ستوتة » ، ولكنها لم تبلغ العشرين من عمرها .

كيف يمكن أن يخطىء امرؤ بين فتاة في العشرين أو دونها وفي مثل عمر أبنائه ، وبين أمها التي ناهزت الأربعين وتماثله هو ــ ؟

ونسمعه بعد هذا يسأل « فيفي » عن الحاج « أبو صالح » وعن «ستوتة» فتخبره بأنهما ماتا .. ولا يبدي صاحبنا ما هو خليق بمثل هذا الموقف من حزن ، أو على الأقل من دهشة المفاجأة . ويمر هذا الخبر الخطير ببساطة ، على الرغم من أنه جاء بدافع الذكرى والحنين لرؤيتهما بعد ثلاثين سنة . ثم يسألها عن الفرن الذي كان ينام فوقه هو وستوتة في الزمان الغابر ، وعما اذا كان من الممكن أن يقضي ليله فوق سطحه ، فتنبئه أن الفرن قد اندثر . ونحن اذا استطعنا أن نفهم كيف يسألها عن الفرن البدائي القديم وعن رغبته المبيت فوقه ، حتى بعد أن شهد كل معالم التطور هذه ، نجد أنفسنا عاجزين عن فهم أو هضم ذلك السؤال المتكلف الذي يقول فيه باستغراب :

وكيف تحصلون على خبزكم ؟

الحق أننا لا ندري كيف يحصلون على خبزهم بعد أن اندثر الفرن العربي .. وكأنه ليست هناك وسائل حديثة تعرفها الطبقة (وهو ابن المدينة) يحصل بواسطتها الناس على خبزهم ، خاصة بعد أن غدت القرية « شعلة من نور الكهرباء ، ومبانيهما متسقة الهندسة جميلة التصميم » أي بعد أن أصبحت الحياة فيها كالمدينة التي جاء منها سواء بسواء .

ونسمع فيفي تجيب بأنهم يحصلون على الخبز من مخبز الجمعية التعاونية، فيعود هو الى ادهاشنا من جديد بقوله :

أمر عجيب !

فلماذا هو أمر عجيب ، والقاهرة نفسها التي يعيش فيها ، ومدن أخرى غيرها أو قرى حديثة كثيرة تحصل على خبزها بنفس الطريقة ، والجمعيات التعاونية منتشرة في أرجاء الجمهورية كلها .. أو ليس هذا عجيبا حقا ؟ » .

* * *

ذلك ما كتبه الأديب « يوسف جاد الحق » في التعقيب على قصة « الطاقية » .

وهذا مجمل تعليقي على مواضع النقد ، أرجو أن ينفسح له صدر الناقد الفاضل ، والا يضيق به صبر القراء الكرام .

١ ــ فأما اصرار الرجل على ان يذهب الى القرية على ظهر حمار ، فليس في ذلك مفارقة ، وما كانت معالم التعبير الجديد لتقتل رغبته في استعادة المظاهر التي الفها في ماضيه ، فان هذه المظاهر هي التي بعثته على ان تؤم القرية ، احياء لذكرياته في ربوعها .

٢ ــ وأما ان التغيير الذي طرأ على القرية لم يمنع وجود صاحب حمار يرضى أن يؤجر حماره لراكب اذا اجزل له العطاء ، فذلك هو الأمر الطبيعي ، وغيره تكلف وافتعال ، وليس في الناحيين ما يدل على الحاح الحاجة ، أو ما ينافي الكرامة . فالكسب مطلب حلال ، والاستزادة منه طموح مشروع ، و « سيل اللعاب » لمرأى العطية العضية مما تقتضيه الغرائز البشرية ، ومما هو ثابت للانسان على تعاقب الزمان وتباين المكان وتغير الحال !

٣ ــ وأما اني جعلت الرجل يبحث عن « ستوتة » وأبيها بين الفاسي في المرح ، وقد مضى على فراقه اياهما نحو ثلاثين عاما ـــ فالواقع اني أطلقت الرجل يبحث ـ كما قلت نصا في مواضع متفرقة ـ « اين تسكن تلك الأسرة ؟ » و « من يعينه على أن يلقى واحدا منها ؟ » و « من يرشده الى دارها ، ليجدد العهد معها ؟ » . فليس في الأمر اذن تلك المفارقة المزعومة .

٤ ــ وأما أني تركت الرجل يخطىء بين فتاة في العشرين وأمها التي ناهزت الاربعين ، فالحق اني لم أتركه يخطىء ولكن الرجل حين رأى وجهها بعيد هذا الخطأ ، ولم يخطر لي ذلك ببال ، اليه بملامحه وسماته وجه الأم . اندفع هاتفا باسمها . وتلك حالة طبيعية يأسها كل أمرىء تمر به هذه التجربة في حياته .

٥ ــ وأما ان صاحبنا لم يظهر الحزن حين علم بوفاة فتاة احلامه وأبيها ، فالحقيقة انه اظهره بأجلى ما يمكن ان يكون في موقفه ، وقد عبرت عن ذلك في جملة تصويرية مركزة ، حين قلت « ومرت برهة والرجل صامت خاشع البصر » وليس أصدق من ذلك تعبيرا عن مواجهة ذكرى نعي مضت عليه سنون !

٦ ــ وأما تعجب الناقد من ان يسأل الرجل عن الفرن ، بعد أن رأى تمدن القرية ، وسأل أين يخبزون ، وهو يعرف كيف يصنع الخبز في المدن ، فان هذا التعجب لا محل له ، وللرجل ان يسأل عن الفرن ، وهو مهوى نفسه ، وموضع انسه ، ومناط ذكرياته ، وسؤاله عن الخبز ليس سؤالا عن شيء مجهول له ، أو شيء لا يستطيع تصور الجواب عنه ، ولكنه سؤال عرضي يسترسل به في الكلام ، طوعا لسياق الحديث . وكثير من الحوار القصصي القائم على سؤال وجواب ليس فيه حتما كشف عن مجهول ، أو اخبار . بجديد !

ومهما يكن من أمر هذا النقد ، فهو في تفاصيل ثانوية من مواقف القصة الفرعية ، وفي التفاصيل التي من هذا القبيل تتخالف الأفهام وتتغاير الأذواق .

وللأديب الناقد تقدير خالص لرأيه ، وشكر جزيل لفضله ، وسلام .